٣ ـ الإعجاز في المفردة القرآنية

شكلت المفردة القرآنية المبحث الثالث للنظم القرآني مُشكِلة مع المبحثين الآخرين مثلثاً دلالياً يسبر أغوار النص القرآني، محققاً غاية التشريع الحكيم من خلال مسارات ثلاث: لغوية، صرفية، بلاغية.

آ ـ خصائص لغوية:

من الخصائص اللغوية التي نتلمسها على صعيد المفردة القرآنية:

١ ـ **مراعاة الألفاظ لمقام السياق:** ولدى تأمل هذا الاستخدام تبهرنا دقة معاني المفردات في الآيات التي قد يتراءى فيها التعارض الظاهري لدى الوهلة الأولى! بيد أن التأمل العميق لمعاني هذه المفردات، يُجلّي أبعادها، ويكشف عن دقة استخدامها في سياقها.

ومن هذه الآيات ما ورد في وضع الضوابط لعلاقة الابن المسلم بأبيه الكافر، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ (لقمان: ١٥) ثم نجد ضوابط هذه العلاقة في آية أخرى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ (المجادلة: ٢٢) هذه الآية قد توحي للذهن لدى القراءة الأولى أنها تعارض الآية السابقة: فالأية الأولى تحث الأبناء على إحسان معاملة الآباء، والثانية تنهاهم عن ذلك، مع أنه لا تعارض بين الآيتين لدى التعمق الدقيق بينهما لدلالة المفردتين: «يوادون» في الآية الأولى و«معروفاً»، في الثانية! حيث يتجلى التناسق الدقيق بينهما؛ فمعنى «الود» أن تكون بينك وبين المودود علاقة محبة. جاء في لسان العرب: «وددت الرجل أوَدُّه وُداً: إذا أحببته[1].

أما «المعروف» فلا يشترط فيه المحبة؛ لأن المعروف يبذله المرء لمن يحب، ولمن لا يحب؛ قال صاحب اللسان: «المعروف النَّصفَةُ، وحُسْنُ الصحبة مع الأهل وغيرهم من الناس»[2].

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، مادة: «ودد».

(٢) المصدر السابق، مادة: «عرف».

ومن هنا جاءت الآية الأولى تمنع إقامة علاقة ودية مع الوالدين غير المسلمين، لأن الإيمان لا يتجزّأ، ومن ضوابط هذا الإيمان أن يكون الحب والكره في الله[1]، وهذا الحب والكره ينسحبان حتى على الأبوين؛، لأن حب الله سبحانه أولى من حبهما، وبتحقق هذا الحب تنعقد أواصر الإيمان، في حين لا يمنع عدم الحب من تقديم المعروف لهما، وإحسان صحبتهما، اعترافاً بفضلهما.

ومن المفردات التي تسطع بقوة أدائها الدلالي، موضحة مفهوماً عقدياً، من خلال ما قد يتراءى بينها من تعارض ظاهري! ما نجده في مفردة «الهدى» فهي تأتي لتدل على أن الهداية أمر تكليفي يخضع لاستجابة ذاتية: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ (فصلت: ١٧) كما وردت في مواقع أخرى لتدل على أن الهداية أمر توقيفي من الله سبحانه، لا مجال فيه للإرادة الذاتية، كما جاء في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ (آل عمران: ٧٣).

(١) جاء في صحيح البخاري: «الحب في الله، والبغض في الدين من الإيمان»، انظر: محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، (دار الفكر، ١٩٨١م)، ٨/١.

ولدى إعمال الفكر في الآيتين يتبدى التناسق التام بينهما من خلال فقه مدلول الهداية العقدي الذي أوحت به الآيتان، فالآية الأولى أشارت إلى هداية «الدلالة» وهي هداية عامة شاملة لجميع الخلق، هداية الدلالة للمنهج الرباني. والآية الثانية أشارت إلى النوع الثاني من الهداية؛ هداية «المعونة» وهي طاقة إضافية تكون رافداً لهداية الدلالة، والارتقاء بصاحبها إلى مرتبة سامية: مرتبة التقوى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ (محمد: ١٧) وهذه المرتبة من الهداية ترقى بأصحابها إلى مكانة أثيرة في الجنة: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾﴾ (ص: ٤٩، ٥٠).

٢ ـ **الكثافة الدلالية للمفردة القرآنية**: ترددت هذه السمة اللغوية بوضوح في كثير من المفردات القرآنية، ومن هذه المفردات ما نجده في مفردة «الحمد» في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (الفاتحة: ٢) فهي قد أفادت إلى جانب حسن الافتتاح وروعة المطلع، المبالغة في الثناء على الله سبحانه، بما يليق بجلاله؛ لأن «اللام» في الحمد

تضمنت معنى الاستغراق[1]، وهذا لا يتأتى لو جاءت اللفظة على الأصل، بصيغة: (أحمد الله رب العالمين).

ب ـ خصائص صرفية:

نهضت الخصائص الصرفية على صعيد المفردة القرآنية بوظيفة دلالية واضحة المعالم عمّقت أهداف الكتاب الكريم. وقد تراءى ذلك في:

١ ـ **البعد الدلالي لصيغ المبالغة**: اتسمت صيغ المبالغة بمخزون دلالي عميق يتكافأ مع دقة التشكيل اللغوي للصيغة بمعناها التوقيفي الاصطلاحي؛ وهذا ما نلحظه في اسمي الجلالة: «الرحمن» «الرحيم».

ولدى إنعام النظر بهاتين المفردتين نجد أنهما مشتقتان من «الرحمة» إلا أن الصيغة الاشتقاقية لكل منهما حملت في ثناياها بُعداً دلالياً لم يتوفر في الأخرى! فـ «الرحمن» تضمنت معنى عظيم الرحمة؛ لأن «فعلان» صيغة مبالغة في كثرة الشيء وعظمته، ولا يلزم فيه الدوام كغضبان، ونعسان[2].

---

(١) محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، (بيروت: دار القرآن الكريم، ١٩٨١م)، ١/١٢.

(٢) لأنها معدولة عن اسم الفاعل: راحم، غاضب، ناعس.

أمـا صـيغة «الـرحيم» فتضـمنت معنـى دائـم الرحمـة، لأن «فعيـل» تسـتخدم في الصـفات الدائمـة، ككـريم، وظريـف، فكأنه قيل «العظيم الرحمة الدائم الإحسان»[1].

يقـول الإمـام الطـبري منوهـاً عـن الخـواص الدلاليـة للـرحمن والـرحيم: «... هـو أنـه بالتسـمية بـالرحمن موصـوف بعمـوم الرحمـة جميـع خلقـه. وأنـه بالتسـمية بـالرحيم موصـوف بخصـوص الرحمـة بعـض خلقـه... وقـد خـصّ عبـاده المـؤمنين في عاجـل الـدنيا بمـا لطـف بهـم مـن توفيقـه إيـاهم لطاعتـه، والإيمـان بـه وبرسـله، واتبـاع أوامـره، واجتنـاب معاصـيه... كما قال جل ذكره: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾[2].

ومن المفردات ذات الكثافة الدلالية ما نجده على صعيد المعاني الاشتقاقية لمفردة «المُلك» حيث نجد هذه الصيغة قد اختزلت عدة مراحل للملكية التي نجدها في اشتقاقات أخرى للمفردة: فمنها ما يأتي بمعنى «مَالِكْ» وهو الملك الذاتي للفرد، ويأتي منها «مَلِكْ» وهو الحاكم، ويأتي منها «مُلْكْ» وهو مالك من يملك.

---

(١) الصابوني، صفوة التفاسير، ١٢/١.

(٢) محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن، (بيروت: دار الجيل، القاهرة: دار الحديث، ١٩٨٧م)، ٤٢/١.

ولما كانت غاية التعبير القرآني التركيز على المفاهيم العقدية وترسيخها بالنفس الإنسانية، فقد جاء بصيغة الملكية من أصلها، لينبه الأذهان إلى أنه سيأتي اليوم الذي لا يوجد فيه مالك سواه: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ (غافر: ١٦).

٢ـ **الوظيفة الدلالية للإسناد الجمعي**: شكلت صيغة الإسناد الجمعي ملمحاً بارزاً في تحقيق أهداف البيان القرآني، وذلك من خلال التلاحم الدقيق بين التشكيل الصرفي؛ والمفهوم العقدي، بحيث يساند أحدهما الآخر، ويتجلى ذلك في التشكيل الصرفي لمفردتي: «نعبد» «نستعين» من خلال ورودهما بصيغة الجمع، مع أن المتلفظ بهما فرد واحد. فلم يقل: (إياك أعبد، وإياك أستعين)، وحكمة هذا الإسناد الجمعي ـ والله أعلم ـ «للاعتراف بقصور العبد عن الوقوف في باب ملك الملوك، فكأنه يقول: أنا يا رب العبد الحقير الذليل، لا يليق بي أن أقف هذا الموقف في مناجاتك بمفردي، بل أنضم إلى سلك المؤمنين الموحدين، فتقبل دعائي في زمرتهم، فنحن جميعاً نعبدك، ونستعين بك[1].

(١) الصابوني، صفوة التفاسير، ١٣/١.

جـ ـ خصائص بلاغية:

حققت الخصائص البلاغية على صعيد المفردة القرآنية مرجعية مزدوجة تجلت على المستوى الديني والبلاغي، ونتلمس ذلك في:

١ ـ **التصعيد الدلالي لصيغة التنكير**: طرح هذا اللون البلاغي الاستعداد ليوم الدين ببلاغة التعبير على مستوى التنكير، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ (البقرة: ١٢٣)

في هذه الآية الكريمة جاء التنكير في مفردة «يوماً» لإفادة المبالغة والتهويل في شأن ذلك اليوم الذي يأخذ تصوره في النفس كل مأخذ لاستكناه أحداثه، وشدة أهواله، وهذه الصورة من الفزع النفسي لم تكن على هذا النحو من الجسامة فيما لو جاءت المفردة على صورة التعريف (واتقوا اليوم) لأن المعروف والمألوف لا تُخشى عواقبه، ومن ثمّ لا يُجدي التحذير منه لاجتناب عواقبه!

٢ ـ **البعد الرمزي للتقديم والتأخير**: ومع مواكبة السمات البلاغية على صعيد المفردة القرآنية تتجلى سمة أخرى تبرز أثر النظم القرآني في بيان أهداف البيان المعجز، ويتجلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ (التحريم: ١١). هذه الآية الكريمة أفادت تجسيد صورة من صور الحب الإلهي؛ الحب الصادق المنزه عن المنافع، وهذه القاعدة الإيمانية تراءت من خلال تقديم «عندك» على «بيتاً» وهذا التقديم قد جسّد بأن امرأة فرعون قد آثرت جوار الله على نعيم الجنان؛ إذ لم تأت صياغة الآية على هذا النحو: (رب ابن لي بيتا عندك في الجنة)، وهذا دليل على عظم المحبة وسموها، فهي في شوق للمنعم لا للنعم، وللمعطي لا للعطاء، وللجار قبل الدار! هذا فضلاً عن تقريرها لقاعدة إيمانية: «عقيدة الولاء والبراء» عقيدة الحب والكره في الله! فقد تبرأت من الزوج، وتحدت الطغيان، صبرت على الابتلاء، لترقى إلى مرتبة سامية من العطاء؟ إلى جوار الله!

ومن الخواص الأخرى للتقديم والتأخير التأصيل لقضية عقدية، تتجلى في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة: ٥) بتقديم مفردة «إياك» على الفعل «نعبد»

وهذا التقديم قد احتوى كثافة دلالية لا يمكن تحقيقها فيما لو جاءت الآية على مقتضى التركيب المألوف بتقديم الفعل على المفعول «نعبدك ونستعينك» فقد أفاد هذا التقديم للضمير «إياك» معنى الحصر، أو القصر، كما يقول البلاغيون. بمعنى أن هذا التقديم قد قصر تحقيق العبودية والاستعانة على الله وحده دون سواه، ولو لم يتم هذا التقديم لاحتملت الآية العطف عليها، ومن ثّم فإن العبادة والاستعانة قد تصرف لله سبحانه ولسواه!!

وعلى هذا فصيغة الحصر أو ما كان حقه التأخير قد جلّت مفهوم الألوهية، وأن الله وحده هو المعبود والمستعان.

٣ ـ **الوظيفة الدلالية للفاصلة القرآنية**: شكلت الفاصلة القرآنية سمة من سمات التلاؤم الصوتي، وروعه الأداء في النظم القرآني، وهذه الروعة الأدائية للفاصلة القرآنية نلحظها في قوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨﴾ الضحى: ١-٨). في هذه الآيات حذفت كاف الخطاب في: «قلى، فآوى،

فهدى، فأغنى» وهذا الحذف قد علله بعض المفسرين بأنه كثير للتخفيف رعاية للفواصل[1]، إلا أن بعض المهتمين بالدراسات القرآنية من القدماء والمحدثين قد نوهوا عن أن للفاصلة القرآنية وظيفة دلالية تؤازر مهمتها الإيقاعية، يقول الرماني: «وفواصل القرآن كلها بلاغة وحكمة، لأنها طريق إلى إفهام المعاني التي يحتاج إليها في أحسن صورة يدل بها عليها[2].

وتعلل عائشة عبد الرحمن بأن حذف كاف الخطاب في «قلى» وما يليها هو حذف يقتضيه مقام الخطاب، وهو تجنب مخاطبة الله سبحانه رسوله في موقف المؤانسة بجفاف القول: «ولو كان البيان القرآني يتعلق بهذا الملحظ اللفظي فحسب لما عدل عن رعاية الفواصل في الآيات بعدها: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ (الضحى: ٩-١١) وليس في السورة كلها «ثاء» فاصلة، بل ليس فيها حرف ثاء على الإطلاق ... ونرى - والله أعلم - أن حذف كاف من:

(١) ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين، ٦/١.

(٢) علي بن عيسى الرماني، النكت في إعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف الله زغلول سلام، ط ٣، (القاهرة: دار المعارف، مجموعة «ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، للرماني، والخطابي، والجرجاني، ١٩٥٦م)، ص٩٨.

«وما قلى» مع دلالة السياق عليها، تقتضيه حساسية مرهفة بالغة الدقة واللطف، وهي تحاشي خطابه تعالى رسوله المصطفى في موقف الإيناس بصريح القول «وما قلاك» لما في القلى من حسّ الطرد، والإبعاد، وشدة البغض. أما التوديع فلا شيء فيه من ذلك، بل لعل الحس اللغوي فيه يؤذن بأنه لا يكون وداع إلا بين الأحباب، كما لا يكون توديع إلا مع رجاء العودة، وأمل اللقاء[1].

ووفق هذا الدور الوظيفي ترددت جميع الفواصل في النظم القرآني، محققة دقة النظم، وعمق المعنى، وجمال الإيقاع.

(١) عائشة عبد الرحمن، الإعجاز البياني، ص ٢٥٠.